المحاضرة الأولى : نشأة الجغرافيا التاريخية وأهميتها

1- مفهوم الجغرافيا التاريخية : هي فرع من العلوم الجغرافيا تهتم بدراسة التطور التاريخي وحركات السكان المختلفة، وهي جغرافيا الماضي وما يتعرض له المكان خلال الزمن، فالجغرافية التاريخية تحاول أن تعطينا صورة عن مكونات المجال وتطوره عبر الزمن وديناميكيته.

كما تهتم بدراسة كل التغيّرات الحاصلة على المجال وربطها بالعامل الزمني الذي يعتبر من مرتكزات البحث التاريخي، وبفضل هذا الإنفتاح على الزمن حققت الجغرافية التاريخية تطورا ملحوظا مع مدرسة الحوليات التاريخية. وتدرس تأثير البيئة الجغرافية على مجرى الحوادث التاريخية .وعلى أساس أنّ التاريخ هو علم الزمان، والجغرافيا علم المكان الذي له أثر في توجيه أحداث الزمان .

2- نشأة الجغرافيا التاريخية :

احتلّت الجغرافيا التاريخية مكانة هامة ضمن الدراسات الجغرافية وذلك مع نهاية القرن العشرين حيث فرضت نفسها كتخصص قائم بذاته بعد أن كانت تندرج ضمن الجغرافيا العامة، وفتحت آفاق جديدة أمام البحث التاريخي وخاصة في العصرين القديم والوسيط وتعميق المعرفة بخصوص عدد من الظواهر التاريخية المرتبطة بالزمن، مع التوسع إلى الفترة الحديثة وحتى المعاصرة. واتّخذت اتجاهات متباينة من فترة لأخرى، وتزايد الإهتمام بها في أوساط المتخصصين لإبراز أهمية تفاعل الإنسان بالمجال ومعالجة التأثيرات المتبادلة بين الجغرافيا والتاريخ في تطوير المعرفة التاريخية، إلى حد أن البعض لم يتردد في الإقرار بأنّ التاريخ القديم والوسيط يبدأ من الجغرافية التاريخية.

فظهور الجغرافية التاريخية واكبه ظهور للتاريخ الجغرافي أو تزامن معه، فمع تطور العلوم وانفتاحها أصبح من اللازم التداخل بين التخصصات وهذا ما حصل بين التاريخ والجغرافيا، بعد أن ظهرت دراسات اهتمت بتطور خريطة العالم عن طريق الكشوف الجغرافيا، وبعد أن نبهت مدرسة الحوليات الفرنسية إلى الإهتمام بالجغرافيا التاريخية[1].

أهميتها : تفيد دراسة الجغرافيا التاريخية في الكتابة التاريخية وتساعد على اكتساب منهجية البحث على أساس أن هناك ارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا .فقد أدرك العلماء القدامى هذا الإرتباط وماله من فوائد يمكن إبرازها فيما يلي :

- معرفة دور البعد الزمني في التطور والتغيّر الحاصل والمستمر في البيئة والعالم الذي يعيش فيه الإنسان .
- معرفة تطور الأرض والحياة منذ نشأتها وهذا موضوع له علاقة بالجيولوجيا التاريخية وما تناوله علماء التطور.
- التعرّف على حركية المجال من خلال امتزاجه بالزمن التاريخي والماضي، فعلى سبيل المثال تطور البيئة الجغرافية الحالية وعلاقتها بالزمن والاستقرار،وما عرفته حاليا جغرافيا ومناخيا بالمقارنة مع بداية نشأتها وتكوينها، والتدرج من الدراسة السطحية للمجال إلى الدراسة العميقة

---

[1].برز في هذا الجانب فرناند بروديل مستفيدا من إرث لوسيان فيفر وكتابه" الأرض والتطور البشري في العلاقة بين البيئة والمكان" و المدرسة الفيدالية لفيدال دو لابلاش للتفاصيل عن المدرسة ينظر : فرانسوا دوس ، التاريخ المفتت، فرانسوا دوس ، التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد صالح منصوري المنظة العربية للترجمة ، بيروت ،ط1، 2009ص 203.

التي ترصد تطور هذا المجال عبر الزمن، مما يستوجب على الجغرافيين الوقوف وتصحيح المسار والتفكير في كتابة الجغرافيا ببعدها الزمني لتعمّ الفائدة على البحث الجغرافي.

فـالجغرافيا التاريخية تقرّ بأن الموقع ليس فكرة مطلقة فحسب ولكنها نسبية لأنه عامل جغرافي متغير وثابت في الوقت ذاته. وبما أنّه متغيّر لابد من أن يقوّم تقويما صحيحا خلال عصور التاريخ المختلفة، وقد اهتمت مدرسة الحوليات بأهمية الموقع الجغرافي وعلاقته الأحداث السياسية. فالمؤرخ فرناند بروديل مثلا أحدث ثورة في الكتابة التاريخية بأطروحته المعنونة بـ: " المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني "[2].

واستفاد التاريخ من المجال وأنتج رواد مدرسة الحوليات ما يسمّى بالتاريخ الجغرافي، فالمدرسة الفيدالية ساهمت بشكل كبير في ظهور الجغرافية التاريخية هذه الأخيرة التي بإضافتها للعامل الزمني حققت طفرة نوعية في البحث الجغرافي، فثنائية المجال والزمن في الجغرافية التاريخية تزيد من لُحمة التاريخ والجغرافيا وتفتح آفاقا متنوعة للبحث في الدراسات التاريخية منها أو حتى الجغرافية[3].

_ كما أنّ أثر الجغرافية في التاريخ يبرز في تدخلها الحاسم في تغيير مجرى الحوادث،فمثلا في المعارك والحروب كان لطبيعة مسرح المعارك الجغرافية دور في تحديد الجانب المنتصر فمثلا أعاق البحر تقدم تيمورلنك على العبور إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في معركة أنقرة سنة 1402، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، واستمرّت في أداء دورها الكبير في تاريخ البحر الأبيض المتوسط.كما ساعدت العواصف وهياج البحر الأسطول الإنجليزي في هزيمة الأرمادا الإسبانية في سنة 1588، وما أدّى إلى تراجع إسبانيا من مجال القوة والسيطرة وصعود انجلترا بدلها ، كما أن شتاء روسيا القارس والثلوج المتساقطة أدّى إلى فشل حملة نابليون عليها سنة 1812 .

-اعتماد الكثير من الدراسات التاريخية طريقة التمهيد بمقدمة جغرافية تعرف القارئ بجغرافية البلد موضوع البحث وهو ما يساهم في تفسير الكثير من المفاهيم التاريخية من خلال التعريف الجغرافي للمنطقة المراد دراستها .

ومنه فإنّ التاريخ يتداخل مع الجغرافيا باعتماد عامل الزمن الذي يضفي ديناميكية على الجغرافيا في حالة الإستفادة منه، وهو ما يتلخص في التكامل بين الجانبين تحت مسمى الجغرافيا التاريخية.

---

[2]..الكتاب يؤرخ للحضارة والمجتمع والمدن و شبكات المواصلات ضمن العالم المتوسطي ، للتفاصيل راجع كتاب : فرنان بروديل ، المتوسط والعالم المتوسطي ، تعريب وإيجاز مروان أبي سمرا،دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1، 1993 ، بيروت.

[3].المدرسة الفيدالية تنسب إلى فيدال دولا بلاش والتي استفاد منها رواد مردسة الحوليات منهم فرناند بروديل مابين 1920 -1923 ومن أعمال دولابلاش الخصبة في التاريخ .للتفاصيل ينظر: فرانسوا دوس ، التاريخ المفتت، ص 203.